الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ — ١٥٨٤

---

١ — الشعب

فى سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجرد Novgorod ، فياتكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة للتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى نفجرد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية Golden Horde » هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « المخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والتى كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان : وبعد أن تم لهؤلاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى » Sarai على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تقاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبى ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع الزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أدواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضيع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحى العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقســـوة والخيانة والخبث والعنف(١) . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ ــ ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعقوبات رهيبة ، من ذلك ــ كما رُوى لنا ــ أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلوقهم معدن مصهور(٢) .

وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعى أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وشعرها ، كما دمغ الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليتهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقتراب الرجل من المرأة فى أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط فى الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التى تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم فى سن مبكرة ، فكانت البنت فى سن الثانية عشرة والولد فى سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التى كان مطلوباً من العروس فى أثنائها أن تلزم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدة زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين فى طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل فى الأسرة مطلقة مثلها فى ذلك مثل سلطة القيصر فى الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالأيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يحيي هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات يحملن مسابح أينما ذهبن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم — كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر فى اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد تؤدى إلى تجسد الآب والابن والروح القدس فى شخص المتضرع(٣) . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة فى هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس فى صبيحة يوم عيد الفصح يحيون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفى ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعنى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة فى الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والترانيم التى يشترك فى إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتى كانت تبدو وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التى تؤديها فى تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالوث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزرعها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم ؛ وفى إحدى سنوات القحط كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يبذلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى روسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تمدين الشعب الذى صيرته وحشياً مصاعب الحيـــاة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية فى ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية فى مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطى ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسى . وحوالى ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم فى موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن روما الأولى وروما الثانية (يقصد روما والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهى صامدة ، ولن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد »(٤) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعى الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هى التى توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغانى الشعب التى رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هى التى تذيع وتمجد قصص حبهم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو Sadko تاجر نفجرد . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغانى والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصلوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها فى إطار معدنى . وكانت الموضوعات تحددها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم فى تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهللينستية . وأحسن أيقونات هذا العصر هى صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة فى كاتدرائية صعود العذراء فى موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم — وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالوث المقدس للراهب أندريه روبليوف فى دير الثالوث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذه تيوفانس الإغريقى ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكو فى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظمته ويريح ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشكال والحوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكندیناوه — انضمت إلى التراث البيزنطى السائد ، لتشكل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعدل من الطراز السلافى . و' سنة ١٤٧٢ راود الأمل إيفان الثالث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليولوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت إيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها إرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ريودلفو فيرافانتى البولونى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك بييرو سولاريو ، والفيزيونوفى وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى دلجوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيللا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فيرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القديمة فى الكرملين (١٤٧٥ — ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد وبقى الطراز بيزنطيا مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين «كاتدرائية عيد البشارة» الصغيرة (١٤٨٤ — ١٤٨٩) . ثم أقام أليفزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ — ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ — ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرنفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان(٥) . وهكذا — ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطتان الدنيوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والتجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ — أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر القرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر(٦) — نمو موسكو إلى موقعها على نهر موسكو الصالح للملاحة الذى كان متصلا عن طريق ممر برى قصير ، بنهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدنيبر جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع فى ذلك ميكائيل أمير تفر Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ ايفان الأول ، أخو يورى لقبى أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريرة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينبز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حمى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفى عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفى ١٣٨٠ جمع ماماى خان جيشاً من التتار والمرتزقة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدون وأنزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيلى الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نجنى نفجرد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقتبس أمراء موسكو العظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلا عن فوضى الجهل ، وأدارت دفة الحكم على الأسلوب البيزنطى بيروقراطية فى ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدهاء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوى الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا فى نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والحماة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظرهم فى فلاحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً فى الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا . وفى السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً فى الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم فى بطء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بيزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة فى شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت فى العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هى التى تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلى الثانى (١٤٢٥ — ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny — الأعمى — لأن أعداءه فقأوا عينيه — هو الذى قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبتر الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازى حكم التتار .

وصار إيفان للثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ، ووحد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ، لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر فى مكانه فى الكرملين . وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس طبيب أخفق فى علاج ابنه ، وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن لمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا اسم « الرهيب » حتى التقت بحفيده .

وكانت إمارة نفجرد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر فى تطلع جشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم فى الشمال(٧) . وسيطر الأمير العظيم على السهول الممتدة بين موسكو ونفجرد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشترى المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكى تقع المدينـــة الدولة فى ضائقة وتفلس ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالت فيها الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠ من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصبة الهانسا ، وورث تجار موسكو أسواق نفجرد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف فى الوقت المناسب حفاظاً على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعتها روستوف Rostov

وإياروسلافل Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن توّول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . وانحاز أخ له — أندريه — إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه فى السجن ، فبكى إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن بقايا الغزاة المغول — الأتراك كانوا قد استقروا فى ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا فى سراى Sarai وقازان Kazan وفى القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفى ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان فى أن يغامر بعرشه وحياته فى رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التى أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلا من تعقب الجيش المنسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراى (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلا ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار ، وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضا . وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول فى سراى ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا ؛ ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوما ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية ؛ وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرر بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق فى ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندى إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم فى فدروشا Vedrosha وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفى نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التى كسبتها — إلى الغرب من نهر سوز Sozch بما فى ذلك شرنيجوف Chernigov حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفدته .

إن حكم إيفان الذى دام ثلاثا وأربعين سنة يعدل فى أهميته أى حكم آخر فى تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بإيمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقيـــة أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب رومانى إغريقى . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثة السلطة السياسية والدينية لبيزنطه الغابرة ، واقتبست من بيزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البيزنطية والأبجدية البيزنطية الإغريقية وأشكال الفن البيزنطى ، وبقدر ما كانت بيزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اصطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مملكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ — إيفان الرهيب

١٥٣٣ — ١٥٨٤

تابع فاسيلى الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ — ١٥٣٣ توحيد روسيا ؛ وضم سمولنسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتى ريازان ونفجرد — سفرسكى على الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت لحكم فاسيلى (١٥١٠) جمهورية بسكوف التى كانت يوماً مزهوة بنفسها » ؛ كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلى الرسائل على قدم المساواة مع مكسيمليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانونى وليو العاشر . وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبح جماحهم بكلمة احتقار واحدة هى « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنسكى ، وهى سيدة مصقولة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم تباعاً ، ونشروا الفوضى والخلل فى المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا فى الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفى غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن يكون مهملا متجاهلا بل محروماً بائساً فى بعض الأحيان . ولما كان يبصر بضروب الوحشية فى كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولا فى السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكدا متقلب المزاج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدُ ولداً فى الثالثة عشرة من عمره ، (١٥٤٤) ألقى إلى كلابه أندريه شويسكى زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور فى الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصراً ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفى ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه فى شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح فى ألمانيا واسكندیناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضى المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التى منحت للكنيسة أيام كان إيفان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهدأ بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيفان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن ألكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاونين القديرين كان إيفان فى سن الحادية والعشرين سيدا على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هيئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة سترلتس Strieltsi(*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) — نوع من الأسلحة النارية اخترع فى القرن الخامس عشر . ونشأ القوزاق فى هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم فى جنوب روسيا بين المسلمين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوما على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن لفظة تركية معناها مغامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التى كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون فى جنوب شرقى روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue فى الجنوب الغربى ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطى ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً لجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متساوية أمام القانون(٨) . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، الدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفى الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان واستراخان والقوم لا تزال فى قبضة التتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم فى نهر الفولجا حتى منابعه . وفى ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠٫٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوما . ولكن المسلمين — وكان عددهم ٣٠٫٠٠٠ — قاوموا وصمدوا فى عناد تحدوهم للروح الدينية وهاجموا أعداءهم فى غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدى بنى وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدى المسيحيين الدنسة(٩) » . ولما وهنت عزائم المحاصِرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو فى طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألمانى الألغام فى الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا » ، وأعملوا الذبح فى كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين ، ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين فى الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافى يستولى على معقل تترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا بصد المسلمين فى معركة تور سنة ٧٣٢ . وفى ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولجا قناة روسية تماما . وظلت القرم فى يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده فى الشرق حتى ولى شطره متلهفاً نحو الغرب . وكان يراوده حلم تجارة روسية تتدفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوربا على التوسع الصناعى والتجارى ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسى منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفى ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفى Hugh Willoughlby وريتشارد تشانسلر لإيجاد طريق فى المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich فى ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين فى الشتاء فى لابلند ، ولكن تشانسلر وصل إلى الموقع الذى أسماه البريطانيون أركنجلسك ، على اسم الملاك ميكائيل : وشق تشانسلر طريقه وسط مئات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطونى جنكنسن فيما بعد ، معاهدات تخول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة فى روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقوب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستجلب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ فى لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دوينا الجنوبى يجرى من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريجا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية ، ولم تكن منابع دوينا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها وثغورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق :

وعلى ذلك فإن إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بثمانية أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندة والدانمارك والسويد وألمانيا ؛ وارتعدت أوربا الوسطى بأسرها فزعا من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإلب . واستثار ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندة .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمن طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض النبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن ترحد بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتاب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه ، وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمترى ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياب فيهما ، أبقى إيفان على هذين الموظفين فى مواقع السلطة ، ثم طردهما فى ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر فى أحد الأديار ، وقضى أداشف نحبه فى إحدى الحملات على ليفونيا ، وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفى ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعما أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجذوم . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق أحدى قدمى حامله بالمسامير فى الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع فى اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئا بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسوا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقتم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى الصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً[١٠] » . وكتب كوربسكى فى أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا فى إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز فى عهد إيفان . وفى ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى فى اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم فى الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تآمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش فى عزلة . أما البيان الثانى فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نياته الطيبة دوما . والحق أنه تمسك بمحاباة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجرو يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه فى العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو فى فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعدا سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامره العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت . وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم فى المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجلسهم « الدوما » ، ويخضع لضريبة إجمالية يفرضها القيصر ، ويكون تابعاً له فى الشئون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتى . والقسم الثانى « أوبرشـــنينا Oprichnina — الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضى التى يخصصها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التى يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشغب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد — وكانوا فى البداية ألفاً وبلغ عددهم فى النهاية ستة آلاف — ، اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولمـــا لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التى منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضى من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التى صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة — أوبرشنينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب مماثلا لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطبقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة فى روسيا . وفى مثل هذا القرن الذى كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية فى قبضة الأرستقراطية ، تطلب المشروع شجاعة مفرطة فى القيصر الذى لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذى لايعتد به من جانب التجار والجماهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان — فى هذه الفترة الدقيقة — وهو آنذاك فى سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين(١١) .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندروفسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوتر الذى انتابه بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق فى الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سبباً فى اعتلال عقله الذى لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه خمارات سوداء ، وهى لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم خر ساجداً أمام المذبح فى حماسة حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذى بثه فى روسيا التى بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أمامه فى ذلة وخشوع حتى أطلق عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه فى ذلك شأن أى انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدموا دون شفقة أو رحمة ، وجاء فى عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ — ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخى أن الضحية كان فى الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفى حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته[١٢] » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلى بولنده بهذه الحجة ، وتضرع إنجليزى شهد شيئاً من هذه المجزرة قائلا : « ندعو الله أن نتمكن من تعليم ثوارنا العنيدين واجبهم نحو أميرهم بالطريقة نفسها[١٣] » .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب فى نفجرد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعذراء فى أحد أديار نفجرد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفى الثانى من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكى ، وأعملت النهب والسلب فى الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفى ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء فى « سجل أحداث نفجرد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالى التى دامت خمسة أسابيع . وفى بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون فى اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر فى الأذهان أن التجار ، وهم متلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا فى المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار فى الضواحى ، وحتى البيوت فى المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير : وما لم يكن رواة الأحداث فى الأديار قد بالغوا فى وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجرىء لثوار لييج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب فى رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ لنجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشى . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم فى الحياة التجارية فى روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل فى حفلة تنكرية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممتلئاً بالفتن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادى أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانتكست زمن الحرب . وفى الأراضى المخصصة لطبقة الأوبرشنيكى ، وفى سائر الأراضى فيما بعد ، كان الفلاح مربطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنهوض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذى كان نادراً فى روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار فى ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالى بشدة ، فكان الروبل فى ١٥٠٠ يساوى ٩٤ ، وفى ١٦٠٠ يساوى ٢٤ من الروبلات فى ١٩١٠(١٤) . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هى آخر شىء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر فى الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتتار سكانها من قبائل البشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار فى غرب سيبيريا) تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهى من ألفاظ القوزاق) . وفى ١٥٨١ جند سيمين ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيموفيفتش لغزو هذه القبائل ، وقد تم له ذلك ، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة . أما إرماك الذى كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدته الكنيسة الأرثوذكسية ، وضمته إلى قائمة القديسين .

وكانت الكنيسة هى الحاكم الحقيقى لروسيا ، لأن خشية الله كانت سائدة فى كل مكان ، على حين كان سلطان إيفان محدوداً . وكانت قواعد الطقوس الدينية ، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق ، تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه ، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية . وكانت الصلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرخص بها ، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة فى العداء للبابا فى رومة . وكان إيفان الرابع — مثل هنرى الثامن — يزهو بعلمه فى اللاهوت ، وانغمس مرة فى مناقشة عامة فى الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا ، ويجب أن نسلم بأنه ، وهو أعنف القياصرة ، أدار المناقشة فى كياسة أكثر مما بدا فى المنازعات الدينية فى ألمانيا المعاصرة(١٥) . ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتى آخر ، ذلك أنه ذات يوم أحد فى سنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة فى كنيسة الصعود ، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فيها ، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى ، ولما سأل أتباعه عن سبب لهذا الرفض ، بدأ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه ، فصاح القيصر : « هدئ من روعك وامنحنى البركة » فأجاب المطران : « إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ويستوجب هلاكك » . وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة . وظل فيليب شهرا تعروه الدهشة والعجب والقلق ،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون فى تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفى ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاته حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل فى كنيسة صعود العذراء .

وظلت الكنيسة تنتج معظم الأدب والفن فى روسيا . ودخلت الطباعة فى سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذى شرع فى ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين فى جمع ما تبقى من آداب بلده فى اثنى عشر مجلدا ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دينياً تماماً ، وفى الكثير الغالب يتعلق بالأديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف سلفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهورا هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلى والسلوك ، والخلاص الأبدى ، وإنا لنلحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط(١٦) . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رسـائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فنى روسى فى عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التى لا تزال قائمة بعيدا عن الكرملين فى أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع فى بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهى التى نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيما بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه فى أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضفى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل فى ١٥٨٨ : أضفى اسمه فى وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيقة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضى عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقأ عينيه لئلا ينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعا التصميم ، ولكنهما اقتبسا بعض حركات عصر النهضة فى زخرفتها فحسب(١٧) . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها فى موكب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتطى المطران صهوة جواد مزود بآذان صناعية ، ليقلد الحمار الذى قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقود حصان المطران فى تواضع وخشوع ممسكاً بلجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصلبان والأيقونات وحملة المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعا إلى السماء لتبارك الحياة فى روسيا .

ومما أن وافى عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقى على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبنى بزوجة سادسة . وفكر فى اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضاربة الودية(١٨) (الزواج باثنتين فى وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أوفهم فى طفولته ، وكان الثالث فيودور يعانى من تخلف عقلى . أما الرابع ديمترى ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفى أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثانى « إيفان » وضربها ، لما بدا له من أنها ترتدى ثوبا ينافى الحشمة والوقار ، فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه فى سورة الغضب دون تروٍ بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه ولياليه يصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يؤثرونه على أبنائه . وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتلبعث منه رائحة منتنة . وفى ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة فى تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيما ، لولا أنفه العريض المسطح الذى كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنها تعنى « المرعب » Awesome ، مثل لفظة أغسطس التى أطلقت على القياصرة (الرومان) . وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفى نظرنا ، وحتى فى نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاسياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة . لقد عاصر محاكم التفتيش فى أسبانيا ، وإحراق سرفيتس(*) ، وعادة هنرى الثامن فى ضرب العنق ، واضطهاد الملكة مارى ، ومذبحة سانت برثلميو . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر [١٩] (ولو أن أحد البابوات رحب بالمذبحة وامتدحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه ، وتذكى النار فى مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً . ويقول شاهد عيان إنه كان فى بعض الأحيان « يرغى من فمه — كما يفعل الحصان »[٢٠] لتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسير . ولقد اعترف القيصر بخطاياه وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحلوا منها اتهاماتهم له .

(*) Servetus ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسبانى أحرق وهو مشدود إلى خازوق فى جنيف لاتهامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل فى حماسة ؛ وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين فى بلده وفى زمانه ٠ وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شدقيه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء المخيف . غطى شروره بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمى الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحابى التجار والطبقات الوسطى كبحاً لجماح الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب فى فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون — كما تفيد أعضاء المجلس — من أبناء الطبقة العليا — بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربقة التتار ، وينتشلها من وهدة الفوضى إلى الوحدة ٠ وكان القيصر هجيناً يناضل نضالا وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى فى غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التى كان قد خططها ٠ وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذى قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى ٠ . وضرب لشعبه مثلا مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة ٠ وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية ٠ لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .